

النظام الإقتصادي في الإسلام^(١)

بحث في أهدافه وطبيعته

محمد عمر شسبرا

توطئة :

(اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا) •

آية ختم بها وحى السماء الى النبى - صلى الله عليه وسلم - فى حجة الوداع وقد دنا يومه الذى يلقى فيه ربه •

وحولها يجمع المسلمون على أنها نزلت لتبين للناس أن الاسلام منهج كامل فيه المبادئ الأساسية التى تكفل تنظيم الحياة فى كافة نواحيها •

بيد أن الاجماع أثار تساؤلات حول ماهية الاسلام حتى قبل اذا كان يعتقد به هذا الاعتقاد ، فهل فيه نظام اقتصادى يتميز به عن غيره ؟ واذا كان الأمر كذلك ، فبم يختلف عن الرأسمالية والاشتراكية ، وهما النظامان الاقتصاديان السائدان فى الوقت الحاضر ؟

نطلق من هذين التساؤلين لنستعرض بعض الملامح البارزة للنظام الاسلامى ، مع التنويه الى النقاط الرئيسية التى تميزه عن ذينك

النظامين ، معتمدين بصورة رئيسية على القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة بصفتها مصدر العقيدة الاسلامية ، ومشيرين الى الفقه عند الاقتضاء .

ويجدر بنا في هذا المقام أن تؤكد حقيقة هي أن القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة لا يفرضان التفاصيل كلها ، وانما يعالجان بالدرجة الأولى تلك المبادئ الأساسية التي يمكن أن يستنبط منها من التفاصيل ما يلائم كل بيئة حسب زمانها ومكانها . ولهذا السبب فإن أى بحث في هذا النظام لا يتم - وفق الدراسات الحديثة - الا بالرجوع الى ما جرى استنباطه منهما من تفسيرات واستنتاجات . والدين نفسه لا يعارض هذا العمل اذا كانت الغاية منه تحرى الدقة والامتثال للنصوص الصريحة وعدم تجاوز جوهر الرسالة .

هذا ويمكننا أن نعتبر المبادئ التي جاء بها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة لتنظيم الحياة في جانبها الاقتصادي ذات شقين :

أولهما : يتعلق بالأهداف التي وضعها الاسلام أمام المسلمين وطبيعة النظام التي تعطى الأهداف شكلها العملي .

ثانيهما : يخص الاجراءات التي تتحقق بها الأهداف ، ونعني بها الاطار الاجتماعي السياسي ، كالزكاة ، وتشريع الارث ، وتحريم الربا ، وغيرها .

ومع ان البحث يتركز على طبيعة النظام وأهدافه الا أنه لا يخلو من التلميح الى الاجراءات لألقاء الضوء على مكائتها وأهميتها داخل النظام كله .

وقد رأينا أن ندرس طبيعة النظام بعد أن نوفي أهدافه حقها من البحث ، لعلنا أنه ما من نظام اقتصادي الا ويكون لأهدافه أكبر الأثر على تحديد طبيعته ، الأمر الذي يجعل الخوض في الأهداف شرطاً مسبقاً لفهم الطبيعة .

أهداف نظام الاقتصاد في الإسلام

الإسلام ليس دين زهد ونسك (ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم) (١) وليس من مرامية حرمان المسلمين من طيبات ما أحل لهم : (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق) (٢) •

وله في الحياة نظرة ايجابية : فهو لا يرى الانسان خطاء منذ خلق ، ملعونا أبدا لخطيئته الأولى ، بل يراه خليفة الخالق في الأرض ، وما عليها كائن من أجله : (واذا قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة) (٣) •

نلمس من هذه الآيات ، ومن كثير غيرها ، أن الزهد في نعم الله ليس فضيلة ، وانما الفضيلة هي في تمتع الانسان بها في حدود القيم التي رسمها الدين لأثراء سعادته • وهذه القيم تتخلل نواحي النشاط الانساني بأسرها ، ذلك ان الإسلام لا يرى أن في الحياة قطاعا يمكن اعتباره قطاعا دينويا بحتا • فالعمل في كل مجال من مجالات النشاط الانساني ، بما فيها النشاط الاقتصادي ، هو عمل روحي شريطة أن ينسجم مع قيم الإسلام وغاياته التي تسعى في جوهرها الى تحديد نظامه الاقتصادي ، والتي يعتبر تفههما مطلبا أساسيا للقدرة على رؤية هذا النظام رؤية واضحة •

والأهداف هي :

- (أ) الرخاء الاقتصادي ضمن آداب الإسلام •
- (ب) الأخوة والعدالة الشاملة •
- (ج) التوزيع المقسط للدخول •
- (د) حرية الفرد في حدود الرفاهية الاجتماعية •

(١) سورة الحديد - الآية ٢٧ •

(٢) سورة الأعراف - الآية ٣٢ •

(٣) سورة البقرة - الآية ٣٠ •

وذكر هذه الأهداف لا يعنى حصرها ، فالمقصود بها أن نضع بين أيدينا مادة نستند إليها في بحث النظام والتوسع فيه ، ومن ثم التركيز على سماته الخاصة التي تجعل منه نظاما متميزا عن الرأسمالية والاشتراكية معا .

(١) الرخاء الاقتصادي ضمن آداب الاسلام :

— ... (كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين) (١) .

— (يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان) (٢) .

— (يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين . وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذي أتم به المؤمنين) (٣) .

تعرض هذه الآيات ، كما يمرض الكثير غيرها ، البنود الرئيسية للنظام الاسلامي وترغب المسلمين في الاستمتاع بما أفاء الله عليهم من نعم ، دون أن ترسم حدودا لما يجب ان يكون عليه الازدهار في المجتمع الاقتصادي المسلم .

ففي آية نرى السعي مقرونا بالعمل الصالح .
— (فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله) (٤) .

وفي حديث شريف : « اذا سبب الله لأحدكم رزقا من وجه فلا يدعه حتى يتغير له أو ينكر له » (٥) وللمسلم صدقة فيما يأكل الانسان أو الطير

(١) سورة البقرة — الآية ٥٩ .

(٢) سورة البقرة — الآية ١٦٧ .

(٣) سورة المائدة — الآيتان ٨٧ و ٨٨ .

(٤) سورة الجمعة — الآية ٩ .

(٥) رواه ابن ماجه ٧٣٧/١ وأحمد في مسنده . والحديث ضعيف

(فيض القدير ٣٧١/١) .

أو البهيمة من زرعه • روى عنه - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : -
ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو انسان أو بهيمة
الا كان له به صدقة (١) •

- من طلب الدنيا حلالا استغفانا عن المسألة وسعيا على أهله
وتعطفا على جاره لقي الله تعالى يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر (٢) •
ولا يقتصر الأمر على ذلك فحسب ، بل المسلمون مطالبون بالسيطرة
على الموارد الطبيعية وتسخيرها لما فيه نفعهم ، مصداق قوله تعالى :
- (ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض
وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة (٣)) •

وقوله عليه الصلاة والسلام : ما أنزل الله داء الا أنزل له شفاء (٤) •
ومنها نلاحظ أن الوصول الى مستوى عال من الازدهار الاقتصادى
لا بد أن يكون مشمولا فى الأهداف الاقتصادية للمجتمع المسلم لما فيه
من دلالة على وجوب المثابرة على بذل الجهود للارتفاع بما أوجد الله
سبحانه لخدمة الانسان وتحسين معاشه تحقيقا للغاية التى خلقه
من أجلها •

وفى مقابل رفع المستوى المعاشى يقع النهى عن المسألة • ففى
الحديث :

- ولا تسألوا الناس شيئا (٥) •
- اليد العليا خير من اليد السفلى (٦) •
- ما كسب الرجل كسبا أطيب من عمل يده (٧) •

-
- (١) رواه البخارى ١٢٨/٣ ومسلم والترمذى •
 - (٢) المشكاة - للترمذى ٦٥٨/٢ •
 - (٣) سورة لقمان - الآية ٢٠ •
 - (٤) رواه البخارى ١٥٨/٧ وابن ماجه ١١٢٨/٢ •
 - (٥) سنن أبى داود ٣٨٢/١ •
 - (٦) رواه البخارى ١٣٣/٢ والنسائى ٤٥/٥ •
 - (٧) رواه ابن ماجه ٧٢٣/٢ والنسائى ٢١٢/٧ •

ومنها يتضح ان أحد الأهداف الاقتصادية للمجتمع المسلم هو ايجاد البيئة الاقتصادية التى تؤمن العمل لكل راغب فيه يكفل له رزقا يتناسب وقدرته . فاذا قصر المجتمع فى هذا الهدف ، فانه سوف يقصر أيضا فى أهدافه الروحية حيث سيعانى العاطلون عن العمل شظف العيش ما لم يركنوا الى المسألة أو الانحراف الخلقى ، وهى أمور ينفر الدين منها أى نفور ولا سيما المسألة والانحراف .

وحرص الاسلام على الرخاء الاقتصادى تابع من طبيعة رسالته ، حيث أنزل ليكون رحمة للعالمين ، وليجعل الحياة أكثر ثراء وجدارة بان تعاش . وفى هذا نقرأ خطابه سبحانه الى رسوله الكريم : وما أرسلناك الا رحمة للعالمين (١) ، وخطابه الى الانسان مبينا له ماهية الاسلام وما يريده لهم :

— « يا أيها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين (٢) » .

— « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » (٣) .

— « يريد الله ان يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا » (٤) .

— « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون » (٥) .

واستنادا الى هذه الآيات قرر العلماء أن جلب المنفعة ودفع المضرة مقاصد الخلق (٦) . وفى هذا قال الامام الغزالى : « ومقصود الشرع من الخلق خمسة وهو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم ، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة وكل

(١) سورة الانبياء - الآية ١٠٧ .

(٢) سورة يونس - الآية ٥٧ .

(٣) سورة البقرة - الآية ١٥٨ .

(٤) سورة النساء - الآية ٢٨ .

(٥) سورة المائدة - الآية ٦ .

(٦) أصول الفقه - محمد ابو زهرة ص ٣٥٥ .

ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة ودفع مصلحة (١) وقال ابن القيم :
ان الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد ،
وهي عدل كلها ورحمة كلها ومصالح كلها وحكمة كلها ، فكل مسألة
خرجت عن العدل الى الجور ، وعن الرحمة الى ضدها ، وعن المصلحة
الى المفسدة ، وعن الحكمة الى العبث ، فليست من الشريعة (٢) .

وفي السعى لحياة أكثر رخاء ورغدا يستطيع الانسان غير المسلم
ان يذهب الى أبعد مدى ليتخذ الرفاه المادى غاية بذاته بتخليه عن القيم
الروحية ، وبالكسب غير المشروع ، وباستغلال الآخرين وظلمهم . الا أن
رغبة الانسان شيء وأمر الله شيء آخر . فالاسلام ينشد « تزكية »
الحياة ، ولذلك يحذر القرآن المسلمين من الاقدام على هذا العمل
بقوله :

— « فاذا قضيت الصلاة فاقشروا في الأرض وابتغوا من فضل
الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » (٣) .

وقد فهم العلماء ان المراد من « واذكروا الله » ليس قضاء الوقت
في الصلاة والتسبيح وانما انتهاج حياة خلقية مسئولة متمسكة بأداب
الدين (٤) يكسب الانسان رزقه بالحلال ويضع نصب عينيه ان المال
ما هو الا استخلاف من الخالق سبحانه عليه :

— « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين
آمَنوا منكم وانفقوا لهم أجر كبير » (٥) .

وقال عليه السلام : أيها الناس اتقوا الله وأجملوا في الطلب فان

(١) المستصفي ، الفزالي ١٣٩/١ - ١٤٠ .

(٢) اعلام الموقعين - ابن القيم ١٤/٣ .

(٣) سورة الجمعة - الآية ١٠ .

(٤) يقول ابن كثير في تفسيره لهذه الآية ما معناه ان على المرء في
البيع والشراء والاخذ والمطاء أن يكثر من ذكر الله لئلا تشغله الدنيا عن
الذي ينفعه في الآخرة (٣٦٧/٤) .

(٥) سورة الحديد - الآية ٧ .

نفسا لن تموت حتى تستوفى رزقها وان ابطأ عنها فاتقوا الله وأجملوا في
الطلب خذوا ما حل ودعوا ما حرم (١) •

ويتضح لنا في هذا السياق تلك الآيات والأحاديث التي تبين ضالة
شأن الحياة الدنيا لا بمعناها المطلق وانما بمقارنتها بالقيم الروحية:

— قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون قليلا (٢) •

— أعلّموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر
في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا
ثم يكون حطاما وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان
وما الحياة الدنيا الا متاع الفرور • سابقوا الى مغفرة من ربكم وجنة
عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك
فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم (٣) •

— وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب وان الدار الآخرة لهي
الحيوان لو كانوا يعلمون (٤) •

وفي الحديث : — كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وعد
نفسك من أهل القبور (٥) •

— أزهّد في الدنيا يحبك الله ، وأزهّد فيما في أيدي الناس
يحبك الناس (٦) •

— ما الدنيا في الآخرة الا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم
فلينظر به يرجع (٧) •

(١) رواه ابن ماجه ٧٢٥/٢ •

(٢) سورة النساء — الآية ٧٧ •

(٣) سورة الحديد — الآيتان ٢٠ و ٢١ •

(٤) سورة العنكبوت — الآية ٦٤ •

(٥) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه ١٣٧٨/٢ وأخرج البخاري صدر
الحديث فقط •

(٦) رواه ابن ماجه والبيهقي والحاكم وصححه •

(٧) أخرجه مسلم ٦٤٨/٢ •

ومع ذلك فإن الفضيلة ليست في التعفف عن هذا المتاع اذا لم تهدر فيه تلك القيم . فقال - صلى الله عليه وسلم - (لا بأس بالغنى لمن اتقى (١) . اما اذا تعارض المتاع مع القيم فعلى المرء ان يقنع بالحلال ولو قل . والله سبحانه وتعالى يقول :

- قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا أولى الألباب لعلكم تفلحون (٢) .

ومن لم تفتنه الدنيا لن تنازعه نفسه بين الاستمتاع بالخبيث الكثير وبين القناعة بالطيب القليل مهتديا بقوله عليه الصلاة والسلام :

حب الدنيا رأس كل خطيئة (٣) .

- من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى (٤) .

ومثل هذه الآيات والأحاديث يفسر لنا الأسلوب الذي يأخذ به الاسلام في ايجاد تناسق بين المادة والاخلاق ، وفي حث المسلمين على ابتغاء السعادة المادية مع الاستقامة في الطلب ، وفي صبغ العمل بصبغة روحية :

- وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك . ولا تبغ الفساد في الأرض ان الله لا يحب المفسدين (٥) .

(١) أخرجه الحاكم وصححه ووافقه الذهبي ورواه البخارى فى الادب المفرد ص ١١٣ .

(٢) سورة المائدة - الآية ١٠٠ .

(٣) رواه البيهقي مرسلا ، كما فى المشكاة ٦٥٩/٢ .

(٤) أخرجه الحاكم واحمد وقال البيهقي : رجال احمد ثقات ورواه البيهقي فى شعب الايمان كما فى المشكاة ٦٥٢/٢ .

(٥) سورة القصص - الآية ٧٧ .

ويقول عليه السلام :

— أعظم الناس هما المؤمن يهتم بأمر دينه وأمر آخرته (١) .

— ليس بخيركم من ترك دينه لآخرته ولا آخرته لدينه حتى
يصيب منهما جميعا فان الدنيا بلاغ الى الآخرة ولا تكونوا كلا على
الناس (٢) .

وهذا التشديد الآن على الحياة في ناحيتها المادية والروحية هو
صفة فريدة يتصف بها النظام الاقتصادي في الاسلام . فالمادة والروح
متلازمان الى الحد الذي يمكن اعتبارهما ينبوعا مشتركا لقوة واحدة
يسعد الانسان بهما سعادة حقة ، وبدونهما مجتَمعين لا تكمل سعادة
الجنس البشرى . فاذا ابتغى الانسان سعادة مادية وقرنها بتكيفات خلقية
وثقافية معوجة فان بغيته ستؤدي به الى امراض نفسية مختلفة كالاكواب
والجريمة والخمر وعلاقات اجتماعية غير سوية وقتل نفس . وكل أولئك
يدل على أن من يرزح تحت ثقلها انما يفتقر الى السعادة في قرارة نفسه .
واذا انصرف كلية الى الجانب الروحي فان غالبية الناس ستري انصرافه
هذا شيئا ليس بواقعي ولا عملي ، وسيفضي به الى ازدواج داخل النفس
وصراع بين القيم المادية والقيم الروحية قد يهدد بتدمير كل ما في المجتمع
البشرى من قيم .

والمزج بين الروح والمادة هو ما تفتقر اليه الرأسمالية والاشتراكية
بسبب نزعتهما للعلمانية من ناحية الروح والحيادية من ناحية الأخلاق .
صحيح انه ليس بوسع أحد ان ينكر ما وصل اليه النظام الرأسمالي
في ميدان فعالية معدات الانتاج ومستويات المعيشة ، وما حققه النظام
الاشتراكي في معدلات النمو الاقتصادي ، لكن ليس باستطاعة أحد أن
يدافع عن اغفال كلا النظامين ما لشخص الانسان من حاجات روحية .

(١) رواه ابن ماجه ٧٢٥/٢ .

(٢) أخرجه ابن عساکر في تاريخه .

(ب) الأخوة والعدالة الشاملة :

— يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير (١) •
— ان ربكم واحد وأباكم واحد فلا فضل لعربي على أعجبي ولا أحمر على أسود الا بالتقوى (٢) •

— ان الله لا يسألكم عن أحسابكم ولا عن أنسابكم يوم القيامة ان أكرمكم عند الله أتقاكم (٣) •

يهدف الاسلام الى اقامة نظام اجتماعي تسوده روابط الأخوة والود كأفراد الأسرة الواحدة • أخوة لا تحصرها حدود جغرافية ، ولا تحتكرها عائلة أو قبيلة أو عرق • وفي هذا يوجه الله سبحانه الخطاب الى نبيه الكريم ليعلن رسالته للناس كافة :

— قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعا (٤) •

وثنى النبي على ذلك في حديثه :

— بعثت الى الأحمر والأسود (٥) •

والنتيجة الطبيعية لهذه الأخوة يظهرها التعاون المتبادل والمساعدة المتبادلة لا سيما بين المسلمين الذين توحدتهم العقيدة بالاضافة الى الأصل المشترك كغيرهم من الناس • وقد وصفهم القرآن الكريم بأنهم : اخوان في الدين (٦) ، رحماء بينهم (٧) ، اخوانكم في الدين (٨) ، انما المؤمنون اخوة (٩) •

(١) سورة الحجرات — الآية ١٣ •

(٢) الطبراني في الأوسط كما في مجمع الزوائد ٨٤/٨ وفي رواية البزار : ان اباكم واحد وان دينكم واحد أبوكم آدم وآدم من تراب •
(٣) ابن كثير — في تفسيره للآية ١٣ من سورة الحجرات ٣١٨/٤ •

(٤) سورة الاعراف — الآية ١٥٨ •

(٥) رواه الشيخان والنسائي (الموافقات ٢/٢٤٤) •

(٦) سورة التوبة — الآية ١١ •

(٧) سورة الفتح — الآية •

(٨) سورة الاحزاب — الآية ٥ •

(٩) سورة الحجرات — الآية ١٠ •

كما يتجلى هذا التعاون والود في الأحاديث الشريفة في وصف ما ينبغي أن يكون عليه المسلمون في شؤون معاشهم :

- الخلق كلهم عيال الله فأحبهم الى الله أنفعهم لعياله (١) •
- ارحم من في الأرض يرحمك من في السماء (٢) •
- مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى (٣) •
- المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسله (٤) •
- وما يتصل اتصالا وثيقا بمفهوم الاخوة توكيد الاسلام على العدل • واقامة العدل صرح بها القرآن الكريم بما لا يدع مجالا للبس ، وقال بأنها هدف أساسى فى كل رسالة سماوية :
- لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط (٥) •

- اما الايمان المشوب بالظلم فغير مقبول مصداق قوله تعالى :
- الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون (٦) •
- والاسلام لا يكتفى بمجرد نصح المسلمين باقامة العدل بل يأمرهم به :
- ان الله يأمر بالعدل والاحسان (٧) •

-
- (١) أخرجه ابو يعلى والبخارى ورواه البيهقى فى شعب الايمان كما فى المشكاة ٦١٣/٢ •
- (٢) أخرجه الحاكم وصححه وأقره الذهبى ورواه ابو داود والترمذى كما فى المشكاة ٦٠٨/٢ •
- (٣) رواه البخارى ١٢/٨ ومسلم ١٩٩٩/٤ •
- (٤) رواه مسلم ١٩٨٦/٤ •
- (٥) سورة الحديد - الآية ٢٥ •
- (٦) سورة الانعام - الآية ٨٣ •
- (٧) سورة النحل - الآية ٩٠ •

— وإذا حكمتهم بين الناس أن تحكموا بالعدل (١) •

وللعدل منزلة سامية في الاسلام ، فهو مقياس تقوى الله والخشية منه • وهما صفتان يتميز بها المسلمون الذين يخاطبهم الله سبحانه في قرآنه :

— يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجر منكم شأن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون (٢) •

والعدل يجب أن يأخذ مجراه ولو على النفس أو القريب :

— وإذا قتلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى (٣) •

— يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ان يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى ان تعدلوا وان تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيراً (٤) •

هذا وسيلقى بحثنا التالي في العدالة الاقتصادية والعدالة الاجتماعية المزيد من الضوء على مضامين العدل في الاسلام •

العدالة الاجتماعية :

الناس في نظر الاسلام أسرة واحدة ، متساوون عند خالقهم وامام شريعته لا فرق بين غنى وفقير ، ورفيع ووضيع ، وأسود وأبيض ، ولا تمييز بينهم في عرق أو لون أو مكانة اجتماعية • فمكانة الرجل تقاس بما هو عليه من خلق كريم ، وما يتمتع به من كفاءة ، وما يؤدي للانسانية من خدمات وقد بين صلى الله عليه وسلم ذلك فقال :

(١) سورة النساء — الآية ٥٨ •

(٢) سورة المائدة — الآية ٨ •

(٣) سورة الانعام — الآية ١٥٢ •

(٤) سورة النساء — الآية ١٣٥ •

— ان الله لا ينظر الى صوركم وأموالكم ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم (١) .

— ان خياركم أحاسنكم أخلاقا (٢) .

وحذر من سوء المنقلب اذا عمت الناس المحاباة على مستوى الفرد أو على مستوى الجماعة ، فالحق لا يعرف صديقا ولا قريبا والجميع مسئولون :

— انما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه واذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد . وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها (٣) .

وورد في سند الامام زيد وعلى الرضا حديث نصه : من استذل مؤمنا أو مؤمنة أو حقره لفقره وقلة ذات يده شهده الله يوم القيامة ثم يفضحه (٤) .

وكتب الخليفة عمر رضى الله عنه الى عامله أبى موسى الأشعري : أن سو بين الناس فى مجلسك حتى لا يئأس ضعيف من عدلك ولا يطمع شريف فى حيفك (٥) .

عمت هذه الروح المجتمع الإسلامى فى العهد الراشدى لكنها لم تستمر كثيرا بعده . بيد أنها شوهدت فى هذا القطر أو ذاك ، نذكر منها على سبيل المثال ما كتبه أبو يوسف الى الخليفة هارون الرشيد :

(١) رواه مسلم ١٩٨٧/٤ .

(٢) رواه البخارى ١٥/٨ .

(٣) رواه البخارى ١٩٩/٨ والنسائى ٦٥/٨ .

(٤) مسند الامام على الرضا ص ٤٧٤ .

(٥) أبو يوسف — كتاب الخراج ص ١١٧ .

— واجعل الناس عندك في أمر الله سواء القريب والبعيد ولا تخف في الله لومة لائم (١) .

— فان صلاحهم باقامة الحدود عليهم ورفع الظلم عنهم (٢) .

ان مفهوم تأخى الناس والمساواة بينهم في المجتمع وأمام القضاء لا معنى له اذا لم تعززه عدالة اقتصادية تضمن لكل فرد حقه ازاء ما يقدمه لمجتمعه أو للنتائج الاجتماعية ، وتكفل ألا يستغل أحد أحدا . ولتحقيق هذا الضمان يطالب القرآن الكريم المسلم بان يرضى بما قسم له فى معاشه لا يتخطاه ليحرم غيره من حقه . يقول الله تعالى :

— ولا تبخسوا الناس أشياءهم (٣) .

ويقول عليه الصلاة والسلام :

— اتقوا الظلم فان الظلم ظلمات يوم القيامة (٤) .

وهذا التحذير من الظلم والاستغلال بصون الحقوق ويحمى الناس، سواء كانوا مستهلكين أو منتجين أو موزعين ، أو مخدمين أو مستخدمين، ويعمل على تنمية الصالح العام ، وهو غاية ما يهدف اليه الدين .

والعلاقة بين صاحب العمل والعامل لها مكائنها فى هذه العدالة ، ويضعها الاسلام فى اطارها الصحيح فيحدد لها قواعد تنصف الطرفين . فالعامل له أجره العادل لقاء مساهمته فى الانتاج والمعاملة الحسنة من قبل صاحب العمل الذى حرم الدين عليه ان يستغل عماله . وقد أخبرنا رسول الله عن ثلاثة سيلقون غضب الرب يوم القيامة منهم صاحب عمل يبخس العامل حقه .

(١) ابو يوسف ، كتاب الخراج ص ٤

(٢) ابو يوسف — كتاب الخراج ص ٦

(٣) سورة الشعراء — الآية ١٨٣ .

(٤) اخرجه مسلم فى صحيحه .

— ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة : رجل أعطى بي ثم غدر ، ورجل باع حرا فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى حقه ولم يعطه أجره (١) •

لكن ما هو الأجر « العادل » ؟ وما هي الأمور التي تشكل استغلالا للعامل ؟ هذه قضايا تحدد على ضوء أحكام القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة •

يرى الاسلام ان هناك عوامل تسهم في الانتاج بالاضافة الى العامل • ومن هذه الرؤية ندرك ان المفهوم الاسلامي لاستغلال العامل لا صلة له بنظرية فائض القيمة التي قال بها ماركس •

من الممكن القول نظريا ان الأجر « العادل » يجب أن ينساوى مع قيمة مساهمة العامل في الانتاج • غير أن تحديد هذه القيمة ليس بالأمر الهين ، وانها لا تجدى عمليا في تنظيم الأجور • لكن هناك أحاديث نبوية نستطيع على هديها ان نستنبط ، بشكل نوعي ، الأجر بحديه الأدنى والأمثل • ففي احدها يقول صلى الله عليه وسلم :

— للمملوك طعامه وكسوته بالمعروف ، ولا يكلف من العمل الا ما يطيق (٢) •

ومنه نلاحظ أن الحد الأدنى هو ما يؤمن للعامل كفايته من طعام جيد وملبس حسن له ولأسرته دون أن يكلف ما لا يطيق • وقد رأى الصحابة الكرام أن الحد الأدنى يجب أن يكون أيضا بالقدر الذي يصون المستوى الروحي للمجتمع المسلم • وروى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه قوله :

— لا تكلفوا الأمة ، غير ذات الصنعة ، الكسب ، فانكم متى

(١) رواه البخارى ١١٢/٣ •

(٢) رواه مسلم وأحمد في مسنده ومالك في الموطا ٩٨٠/٢ •

كلفتموها ذلك كسبت من فرجها • ولا تكلفوا الصغير الكسب فانه ان
 لهم يجد سرق • وعنفوا اذا أعفكم الله • وعليكم من المطاعم بما طاب منها(١) •
 اما الحد الأمثل فهو كما قرره النبي عليه السلام ، وهو الأجر الذى
 يمكن العامل من أن يأكل ويلبس كما يأكل صاحب عمله ويلبس • فقال :
 — اخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت
 يده فليطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس (٢) •

وعليه ، فان الأجر « العادل » لا يمكن أن يكون أقل من الحد
 الأدنى ، وان مستواه المطلوب هو بطبيعة الحال أكثر قربا الى الحد
 الأمثل ، وما ذاك الا لينخفض التفاوت فى الدخول ولتضيق الهوة التى
 تفصل العامل عن صاحب العمل فى شروط معيشتيهما ، وهى الهوة التى
 تخلق طبقتين متميزتين واحدة منعمة وثانية محرومة ، وتوهن روابط
 الأخوة التى تعتبر سمة أساسية من سمات المجتمع المسلم الحق • فى
 حين ان المستوى الفعلى للأجر والذى يقع بين حديه الأدنى والأمثل
 يتقرر حسب تفاعلات العرض والطلب ، ومدى النمو الاقتصادى ، ودرجة
 الوعى الاخلاقى فى هذا المجتمع من ناحية ، وحجم الدور الذى تلعبه
 الدولة فى ممارسة وظيفتها القانونية من ناحية أخرى •

هذا ، ومع ان الدين يعين الأجر الأدنى الذى يمكن أن يتقاضاه
 العامل ويؤثر ان يدفع له الأجر الأمثل ، الا أنه يشترط عدم تكليف العامل
 ما لا يطيق أو وضعه فى ظروف عمل تسيء الى صحته وتحرمه الاستمتاع
 بأجره أو تحول بينه وبين تكوين أسرة • واذا حدث وكلف بما فوق
 طاقته فمن الواجب عندئذ أن يساعد على أداء العمل بلا عنت • وهنا تقع
 تنمة الحديث السابق « ولا تكلفوهم ما يغلبهم فان كلفتموهم
 فأعينوهم » •

(١) رواه مالك ٩٨١/٢ •

(٢) رواه البخارى ١٦/١ ومسلم ١٢٨٣/٣ •

ولعلنا نستنتج من هذا الحديث أن اقرار الحد الأدنى وإيجاد شروط عمل مناسبة واتخاذ اجراءات وقاية ضد مخاطر العمل هي أمور تتفق جميعها مع روح التعاليم الاسلامية • وخير مثال يضرب في هذا الصدد شطر من حوار دار بين نبيين من أنبياء الله عندما استخدم أحدهما الآخر : «وما أريد أن أشق عليك ستجدني ان شاء الله من الصالحين» (١) •

وهذه المعاملة هي ما يأمل الاسلام نشوءها بين العامل وصاحب العمل • لكن لالتزامه جانب العدل عمل أيضا على حماية صاحب العمل ففرض التزامات أخلاقية معينة على العامل نفسه • أولاها أداء العامل لعمله بضمير مع بذل أكبر قدر من الحرص والمهارة • وللرسول الكريم أحاديث واضحة :

— ان الله كتب الاحسان على كل شيء (٢) •

— ان الله يحب اذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه (٣) •

ولا ريب ان العدالة الاجتماعية والاقتصادية التي أولاها الاسلام عناية خاصة تشترط حسن تنفيذ العمل الذي استخدم العامل من أجله • وفي الحديث :

— المملوك الذي يحسن عبادة ربه ويؤدي الى سيده الذي له عليه من الحق والنصيحة والطاعة له أجران (٤) •

وثاني التزام هو الاخلاص والأمانة • ويخبرنا القرآن في سورة القصص : « ان خير من استأجرت القوي الأمين » (٥) • ويحدثنا رسول الله :

(١) سورة القصص — الآية ٢٧ •

(٢) رواه مسلم ١٥٤٨/٣ •

(٣) رواه البيهقي في شعب الايمان •

(٤) رواه البخاري ١٨٦/٣ •

(٥) الآية ٢٦ : من سورة القصص •

— من استعملناه على عمل فرزقناه رزقا فما أخذ بعد ذلك فهو غلول (١) •

وهكذا نشاهد أنه حين وضع الاسلام ضوابط على صاحب العمل لم يترك العامل وشأنه اذ قيده بعدد من الالتزامات هي الضمير الخى والاجتهاد والأمانة والاخلاص • وتلك الضوابط والالتزامات يسود العدل الطرفين في علاقاتهما الاقتصادية •

ومن خلال هذا التنظيم المتناسق للمسئوليات المتبادلة المشدد على التعاون وحسن الاداء في جو الاخاء والعدالة وسيادة القيم الاخلاقية يتطلع المرء الى زوال أسباب التنافر بين الخادم والمخدوم ، وانى افشاء السلام في العلاقات الصناعية •

(ج) التوزيع العادل للدخول :

أكثر الاسلام من التأكيد على الأخوة الانسانية والعدالة الاجتماعية والاقتصادية • وهذا التأكيد يعنى أن التفاوت الفاحش فى الدخول والثروات ينافى جوهره لأن فيه قضاء محتما على مشاعر الأخوة التى يريد بثها بين الناس • وهذا يصدق على الموارد أيضا • يقول سبحانه :

— هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا (٢) •

ولذلك ليس هناك أى مبرر يدعو الى حصرها عند قلة من الناس طالما أن الخالق نفسه لم يجعلها وفقا على فئة معينة • ومن هنا ينبثق اهتمام الاسلام بعدالة التوزيع فيضع برنامجا يوفر لكل فرد مستوى من المعيشة يهيئه لأن يحيا حياة تليق بكرامة الانسان الذى قال سبحانه فى حقه :

— « واذا قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة » (٣) •

(١) رواه ابو داود ١٢١/٢ والحاكم وصححه وقره الذهبى •

(٢) سورة البقرة — الآية ٢٩ •

(٣) سورة البقرة — الآية ٣٠ •

والمجتمع الاسلامى الذى يعجز عن ضمان هذا المستوى يصبح غير جدير بهذا الاسم . وقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام : ليس المؤمن الذى يشبع وجاره جائع الى جنبه (١) . ويعبر الخليفة عمر بن الخطاب عن رأيه فى عدالة التوزيع فيقول رضى الله عنه فى خطبة له :

— ما من الناس أحد الا له فى هذا المال حق أعطيه أو منعه ، وما من أحد أحق به من أحد الا عبد مملوك ، وما أنا فيه الا كأحدهم ولكننا على منازلنا من كتاب الله وقسمنا من رسول الله فالرجل وبلاؤه فى الاسلام والرجل وحاجته والله لئن بقيت لياتين الراعى بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه (٢) .
وقال على كرم الله وجهه :

— ان الله عز وجل فرض على الأغنياء فى أموالهم ما يكفى الفقراء .
فان جاعوا أو عروا أو جهدوا فيمنع الأغنياء . وحق على الله تبارك وتعالى ان يحاسبهم ويعذبهم (٣) .
والعلماء مجمعون على أن واجب المسلمين عامة وأغنيائهم خاصة أن يقوموا بأود الفقير ، وعلى الدولة أن تكرهمهم عليه اذا لم يبادروا هم اليه .

ويتألف برنامج التوزيع من ثلاث نقاط :
الأولى : تأمين عمل لمن يبحث عنه ولا يجبره ، واثابة العاملين بالأجر العادل .

الثانية : ايتاء الزكاة ليعاد توزيع الدخل . فيؤدى الأغنياء زكاة أموالهم للفقراء (٤) الذين لا يستطيعون ضربا فى الأرض ، أو يعانون من
(١) رواه الحاكم والطبرانى وأبو يعلى ورواته ثقات والبخارى فى الأدب المفرد ص ٥٢ .

(٢) الفاروق عمر — لمحمد حسين هيكل ٢٣٣/٢ .
(٣) أبو عبيد — كتاب الاموال ص ٥٩٥ ونهج البلاغة ٣/٢٣١ .
(٤) عن معاذ رضى الله عنه قال : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم أميرا على اليمن فقال : فاعلمهم ان الله قد افترض عليهم صدقة فى أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم رواه البخارى ١٢٤/٢ والترمذى والنسائى .

معوقات عقلية أو جسمية ، أو يرزحون تحت وطأة ظروف خارجة عن إرادتهم كالبطالة مثلا . وذلك عملا بقوله تعالى : « كى لا يكون (المال) دولة بين الأغنياء منكم » (١) .

الثالثة : التوريث وفق دستور الهى ليؤول الارث الى أكبر عدد من الناس .

هذا ولا يذهبن الظن بأن مفهوم عدالة توزيع الدخل ومفهوم العدالة الاقتصادية يرميان الى تساوى الجميع فى الأجر . ان ظنا كهذا يقع على طرفى نقيض من الدين الاسلامى . فالاسلام يتسامح تجاه بعض التفاوت لأز الناس ليسوا سواء فى صفاتهم وقدراتهم وخدماتهم لمجتمعهم . والقرآن الكريم يبين هذه الناحية :

— وهو الذى جعلكم خلائف فى الأرض ورفع بعضهم فوق بعض درجات ليلوكم فى ما آتاكم (٢) .

— أ هم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ، ورحمة ربك خير مما يجمعون (٣) .

اذن ، وبعد ضمان مستوى معاش لائق للجميع بفريضة الزكاة ، فان عدالة التوزيع فى المجتمع الاسلامى تجيز هذا التفاوت فى الكسب فيثاب كل امرئ بما يتناظر وقيمة خدماته لمجتمعه .

وحرص الدين على عدالة التوزيع جعل بعض المسلمين يميلون الى الاعتقاد بالمساواة المطلقة فى الثراء فالصحابى الجليل أبو ذر الغفارى رأى انه لا يحل للمسلم ان يمتلك ما يزيد عن الحاجة الأساسية لأسرته . بيد ان غالبية الصحابة لم تقره على هذا رأى المتطرف وحاولوا ثنيه عنه . ومع ذلك فأبو ذر نفسه لم يكن يدعو الى تساوى الدخل وانما

(١) سورة الحشر — الآية ٧ .

(٢) سورة الانعام — الآية ١٦٥ .

(٣) سورة الزخرف — الآية ٣٢ .

كان يجسد المساواة في الادخار ، وأكد أن هذه المساواة ليست بالأمر المتعذر إذا أنفق الرجل ما يفيض عن مصروفه الأصلي ، أى إذا أنفق العفو ، على تحسين أحوال من هم أقل حظاً منه . ورغم ميل العلماء الى جانب عدالة التوزيع ، إلا أنهم كانوا يرون أنه إذا ابتغى المسلم رزقه بالحلال وآتى الزكاة وأسهم في وجوه البر في مجتمعه فلا بأس عليه في أن يمتلك أكثر من غيره . وفي الواقع ، ان الامتثال لتعاليم الاسلام في الحلال والحرام في الكسب ، وتطبيق قواعد العدل على العمال والمستهلكين ، والتقيد بأحكام الميراث واعادة توزيع الدخل والثروات كل أولئك أمور تجعل المجتمع المسلم بمنأى عما يخلق التفاوت الضخم في الدخل والثروات من مشاكل .

(د) حرية الفرد في سبيل الرفاهية الاجتماعية :

الايان بأن الله خالق الانسان ، وأن الانسان لا يوصف بالعبودية الا له ، هو الركن الهام من أركان الاسلام .
 — قل انما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به (١) .
 — ومن يسلم وجهه الى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى والى الله عاقبة الأمور (٢) .
 وهو جوهر الميثاق الاسلامي للتحرر من كل أنواع العبودية . وبين لنا سبحانه وتعالى في كتابه الكريم أن من المهام التي بعث بها النبي عليه الصلاة والسلام الى الناس أنه :

— (يضع عنهم اصرهم والأغلال التي كانت عليهم) (٣) .
 وبهذا الايمان قال الخليفة عمر رضى الله عنه : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً (٤) . وبه أيضاً قال الامام الشافعى : ان الله خلقك حراً فكن كما خلقك (٥) .

(١) سورة الرعد — الآية ٣٦ .

(٢) سورة لقمان — الآية ٢٢ .

(٣) سورة الاعراف — الآية ١٥٧ .

(٤) اخبار عمر — على وناجى الطنطاوى ص ٢٦٨ .

(٥) الاسلام ونظرية الحياة — م . يوسف الدين - ١٤٠/١ .

وانطلاقاً من هذا الايمان لا يحق لأحد أن يحجر على حرية الفرد ، ولو كان هذا الأحـد هو الدولة • وقد أجمع الفقهاء على عدم جواز الحجر على رجل حر عاقل راشد • ويذهب أبو حنيفة الى انه لا يحجر على الحر البالغ العاقل السفية ، وتصرفه في ماله جائز وان كان مبذراً مفسداً يتلف ماله في ما لا غرض فيه ولا مصلحة •

ولأبى حنيفة رحمه الله : انه مخاطب عاقل ، فلا يحجر عليه اعتباراً بالرشيـد وهذا لأن في سلب ولايته اهدار آدميته والحاقه بالبهايم وهو أشد ضرراً من التبذير ، فلا يتحمل الأعلى لدفع الأدنى ، حتى لو كان في الحجر دفع ضرر كالحجر على المتطبب الجاهل ، والمفتي الماجن والمكاري المفلس ، جاز فيما يروى عنه اذ هو دفع ضرر الأعلى بالأدنى •

لكن مهما تعددت الآراء فان الخلاف في الاجتهاد يحدث اذا تعلق الأمر برجل يلحق الضرر بمصلحته الشخصية دون أن يتجاوز آداب الدين • أما اذا وقع الضرر بالغير فلا خلاف ، فالحد من الحرية في وضع كهذا جائز • والعلماء جميعهم متفقون على ضرورة فرض القيود اذا كان فرضها يحول دون الحاق الضرر بالآخرين ، أو يصون المصلحة العامة • وفي هذا رأى الامام أبو حنيفة أنه يجب الحجر على المفتي الماجن والطبيب الجاهل والمكاري المفلس لأن هذا الحجر يدرأ ضرراً أكبر بانزال ضرر أصغر (١) ان الصالح العام له مكاتته الهامة في الاسلام • أما حرية الفرد فمع ما لها من أهمية أولية ، الا أنها ليست بمعزل عن ضوابطها الاجتماعية • والعلماء سعيًا منهم لوضع حقوق الفرد في منظورها الصحيح من حيث حقوق الناس وحقوق المجتمع ، اتفقوا على المبادئ التالية (٢) :

١ - مصلحة المجتمع تتقدم على مصلحة الفرد •

(١) كتاب الهداية للمرفيناني ٢٨١/٣ وكتاب الفقه على المذاهب الاربعة للجزيري ٣٤٩/٢ •

(٢) للبحث في هذا الموضوع ينظر في : كتاب الموافقات في الاصول للشاطبي ، أصول الفقه لمحمد أبو زهرة ، المدخل الى أصول الفقه لمحمد معروف الدواليبي •

٢ - « رفع الحرج » و « تنمية النفع » هدفان من أهداف الشريعة ، غير أن الأول مقدم على الثاني •

٣ - لا يوقع الضرر الأكبر لازالة الضرر الأصغر ، ولا يضحى بالمنفعة الأكبر في سبيل المنفعة الأصغر • وبالعكس ، يمكن رفع الضرر الأكبر بالضرر الأصغر ، كما يضحى بالمنفعة الأصغر في سبيل المنفعة الأكبر • والملموس من هذه المبادئ أن حرية الفرد ضمن حدود آداب الاسلام تبقى أمرا مقدسا ما بقيت غير متعارضة مع المنفعة الأكبر للمجتمع ، وما بقى الفرد غير متجاوز حدود الآخرين •

(للبحث بقية)